من أعلام التصوّف الإسلامي السلفي قراءة في الفكر الصوفي للعلامة الأنصاري الهروي

أ.قصاصي عبد القادر
أ.محي الدين رشيد
جامعة أدرار

. الملخّص:

لقد خلّف العلامة الأنصاري الهروي فكراً صوفيّاً معتدلاً، وهو ما لمحناه في ما ترك من مؤلفات صّوفية، وبخاصّة كتابه الشهير «منازل السائرين»، والذي يعدّ، باعتراف الشرّاح والدارسين، دستور المتصوّفة والمريدين.

والكتاب الذي كان موضوع هذه المداخلة، يقدّم منهجاً معتدلاً في التصوف للمريدين وطلاّب الحقيقة، باعتماده منهج التدرّج في تتبع مراتب التصوف وأدب التشوّف حتى يصل المريد إلى مرتبة المراد ولقد بُني منهج التصوف على عشرة مقامات أو منازل، وكل منزلة قُسمت عشرة أقسام، لتصل إلى مائة مقام، وكان مصدر الأنصاري في هذا التشريع الصوفي كتاب الله وسنة رسوله عليه أفضل السلام والتسليم .

Résumé :

Le grand savant Elansari Elhaouzri a laissé un héritage de Soufisme modéré, chose qu'on a constatée dans ses ouvrages Soufites et spécialement son fameux livre « Mannazil

Elessairine ». Un livre considéré par les annalistes comme une constitution des Soufites et des Elmouridine.
Le livre qui est en étude dans cette intervention nous offre une vois modéré du Soufisme pour les Elmouridines et les chercheurs de la vérité car ce livre préconise une vois graduelle en suivant les niveaux du Soufisme. Cette vois du Soufisme a été partagée en dix échelons et chaque échelon partagé en dix niveaux, ce qui fait cent niveaux.

La référence d'Elansari dans cette législation du Soufisme est toujours le livre sacré et la sounna du prophète Mohammed.

مقدمة:

تسعى هذه المداخلة، إلى محاولة الوقوف عند واحد من أعلام الفكر الصوفي السلفي المعتدل، والذي أسس منهجاً منفرداً بذاته في فهم حقيقة التصوف الإسلامي، باعتباره وسيلة روحية يحاول الإنسان من خلاله ربط نفسه بخالقه، ثم فهم دينامية هذا الكون الفسيح المحكوم بنواميس تشي بعظمة الخالق وإحكام صنعته.

وبحثنا في صوفية العلامة أبي اسماعيل عبد الله بن علي المشهور بالعلامة الأنصاري الهروي المولود سنة 396هـ /1006م، والمتوفي سنة 481هـ/1089م، متنوع ومتعدد لتعدد النشاطات التي مارسها، فهو شاعر، وأديب، وواعظ، ومتكلم، ومحدّث ومفسر للقرآن الكريم، وفقيه، ومتفلسف صوفي بارع، وفي كل صفة من هذه الصفات رسم منهجه وطابعه الخاص به، وكان له أثراً طيباً في الأجيال التي أعقبته.

ثم إن حياته الفكرية وكفاحه العقائدي، يمثلان برأي الجميع، نموذجين صادقين للعالِم في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ذلك القرن الذي شهد صراعاً حاداً ومدهشاً بين الفرق والمذاهب، بين الاعتزال والتشيّع، وبين الاعتزال والأشعرية، وبين الأشعرية والماتريدية، وبين كل هذه المذاهب والمذهب الحنبلي من جهة، وبينها مجتمعة والإسماعيلية من جهة أخرى، ولقد كانت بلاد ايران وأفغانستان والعراق مسرحاً لصراعات تلك الفرق والمذاهب المختلفة.

من هذا المنطلق وتأسيساً على ماسبق تنبني القيمة العلمية للبحث في كل ما يرتبط بفكر العلامة الأنصاري الهروي، وهذا سعياً للكشف عن الشكل الحنبلي في عقيدة الأنصاري الهروي، مضافاً إليها نزعته الصوفيّة، وجوهر فلسفته في هذا المجال، ثم بحث بعض من جوانب الموقف الحنبلي منه،

وبخاصة عند ابن قيم الجوزية في شرحه لأهم كتبه الصوفيّة، وعلى هذا الأساس فعملنا في هذه المداخلة يسير وفق معالم موضّحة كالآتي :

أولاً : الأنصاري الهروي بين الحنبلية والتصوف:

أ . سلفيّة الأنصاري الهروي.

ب . ابن حنبل عند الأنصاري الهروي.

ج . الأنصاري الهروي ومخالفوه.

د . الصلة بين التصوّف والحنابلة.

ثانياً : المنهج الصوفي عند الأنصاري الهروي:

أ . فلسفة الهروي في كتاب منازل السائرين .

ب . منهج الهروي الصوفي في مقدمة الكتاب.

ج . شُرّاح كتاب المنازل والمهتمين به.

ثالثاً : نظرة الحنابلة للتصوّف الهروي :

أ . الموقف العامّ للحنابلة من الأنصاري الهروي.

ب . الموقف الخاصّ بابن تيمية من نظرية الفناء عند الأنصاري الهروي .

ج . الموقف الخاص بابن قيم الجوزية في مدارج السالكين.

رابعاً :نتائج البحث

وعمدتنا في رسم فسيفساء هذه المداخلة، المنهج الوصفي التحليلي، أملاً في الوقوف على كنه التصوف وأدب التشوّف عند واحد من أعلام الفكر الإسلامي المعتدل، وبخاصة ونحن في عصر هو في مسيس الحاجة إلى بعث فكر متنور ومعتدل يرقى بالمجتمع العربي الإسلامي إلى مصاف المجتمعات الإنسانية.

أولاً : الأنصاري الهروي بين الحنبلية والتصوف:

إن المتتبع لشخصيّة هذا العالم الصوفي ليحار في مقدرته الجمع بين فكرين أو اتجاهين، يبدوان للقارئ أو الناظر في شخصيته وفلسفته متناقضين إلى حدّ بعيد، ذلك أن الهروي صدر عن الحنبلية في تصوفه.

فالذي يُعرف عن الأنصاري الهروي أنه كان: «شد يد القيام في نُصرة السنة والذوذ عنها، والقمع لمن خالفها»[1]، ومن تعصّبه الشديد لذلك أنه ترك مجلس القاضي أبي بكر الحيري لأنه: «سمع منه في مجلسه ما ينكره عليه من مخالفته السنة»، ولشدته وجَلَده في نُصرة السلفية، إصراره الدائم على اتجاهه الحنبلي حينما يُسأل عن مذهبه على الرغم من كثرة مخالفيه من أهل المذاهب الأخرى، ولأجل ذلك كان يدعو إلى الاعتقاد بأن: «مذهب أحمدٍ أحمدُ مذهب»، وهذا تحقيقاً للقاعدة العامّة التي اعتقدها السلفيون في عصره، وهي أن: «كل من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم»، وهذا الاتجاه نتلمّسه صريحاً في قول الهروي شعراً حين يقول في أحد أبياته:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

وفي السياق ذاته، يتحدث الأنصاري الهروي عن مذهبه بأبيات بالفارسية ذكر ترجمتها العربية ابن رجب البغدادي وهي:

إلهنا مرئي على العرش مستوٍ
كلامه أزليٌ ، ورسوله عربي
كل من قال غير هذا أشعري
مذهبنا مذهبٌ حنبلي[2]

---

[1] . ابن رجب البغدادي،كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (القاهرة، 1372هـ =1952م،د.ط)،الجزء الأول،ص51 .

[2] . المصدر نفسه،ج1/ص 52 .

تأسيساً على ما سبق يمكننا أن نعي لماذا كان الهروي شديد الانتصار والتعظيم لمذهب الإمام أحمد الحنبلي، وسعيه الدائم في كسب المعارك مع مخالفيه، متلمساً في منهجه التعصّب التام لظاهر القرآن والسنة على نهج الامام أحمد بن حنبل، مؤسس الحنبلية، وقاهر الاتجاه العقلي عند المعتزلة، بعد محنته معهم[1].

ومن مظاهر ولع الأنصاري الهروي بابن حنبل، إتباعه للأسلوب الذي كان يلجأ إليه الإمام أحمد بن حنبل، فالمعروف عن الأنصاري الهروي أنه لا يحتج إلا بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولأجل ذلك كان يحمل القرآن في كمه اليمين، والصحيحين « البخاري ومسلم» في كمه اليسار، ولعله في هذا يقترب إلى صورة ابن حنبل التي ذكرها ابن الجوزي الحنبلي إلى حد بعيد، وفي مجال اهتمام ابن حنبل بتفيسر القرآن على ظاهر آياته، فلقد قدّم الأنصاري الهروي لنا شرحاً مفصلاً في تطبيق منهج ابن حنبل ولقد استغرق منه أكثر من نصف عمره في مجالس الذكر التي كان يعقدها في هراة [2]، وعلى أثر الامام ابن حنبل انصب اهتمام الأنصاري بالحديث النبوي الشريف قراءة ورواية ودراية، فكان يحفظ اثني عشر ألف حديث نبوي شريف، ومن شدّة معرفته بصحة متون الحديث أنه كان يفاضل بين البخاري ومسلم، ويقدم عليهما الترمذي، حتى أدى هذا التبحر في الحديث إلى اعتباره رائداً يعد في

---

[1] CF. W.M.PATTON.AHMED IBN HANBAL AND THE MIHNA .LEYDEN 1897.

[1] . مدينة مشهورة من أهم المدن بخراسان تقع حاليا شمال غربي أفغانستان، فتحها الأحنف ابن قيس في خلافة عثمان رضي الله عنه، سكانها من أصول طجكية وفارسية. وهي مدينة قديمة بها مبانٍ تاريخية عديدة، دمر الكثير منها بسبب الصراعات العديدة التي قامت فيها في العقود الأخيرة. لها مركز جيد على خط التجارة بين بلاد فارس، والهند، والصين، وأوروبا. لا تزال الطرق بينها وبين تركمنستان وكذلك إيران مهمة إستراتيجيًا،أنظر معجم البلدان، لياقوت الحموي :(5/396-397).

العبادلة، وليس بدعاً بعد هذا أن نجد شيخ الحنابلة المتأخرين، الامام ابن تيمية عليه رحمة الله، يقول إن الأنصاري الهروي : «إمام في الحديث».[1]

وإذا كان الإمام ابن حنبل شديداً على المعتزلة، معارضاً لاتجاهاتها الدينية والفكرية كما هو معلوم فلقد كان الامام الأنصاري الهروي حنبلياً متعصّباً على الأشاعرة، وموقفه هذا لم يكن جدلياً خالصاً بقدر ما كان عقائدياً بحتاً، وإلى جانب هذا الموقف المناوىء للأشعرية، فلقد امتدت منازعات الهروي لتُفتح على جبهات فكرية وعقائدية أخرى، فهناك أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة، ثم عداوته الشديدة والصريحة للجهمية والمعتزلة في مسألة الصفات والأسماء، واستنكاره الدائم لعقائد الشيعة عبى العموم، وغلوه الشديد على أهل الرأي والقياس.[2]

ثم إذا استقرينا جانباً من الحياة التاريخية وقتذاك، وفي جوانبها السياسية تحديداً، نسترجع ذاك الصراع السياسي المرير بين السلاجقة والغزنويين، والذي اتخذ في بداياته شكلاً طائفياً واضحاً، أدركنا لماذا تعرّض الأنصاري الهروي لتلكم المِحَنِ والمحاكمات من الطائفتين المتنازعتين، وبأشكال متنوعة، من ردع بالقوة، وتشريد ونفي، حتى انتهت محنته بأن خلع عليه الخليفة القائم بأمر الله سنة 462هـ/1070م خلعة ممتازة تقديراً له، ثم تابعه الخليفة المقتدي بأمر الله بخلعة أخرى سنة 472 هـ/1081م، مع تلقيبه بشيخ الإسلام.

وحين نحاول ملامسة شخصية الأنصاري الهروي، فإن هذه الشخصية الحنبلية انطبعت بالطابع الصوفي المعتدل، وإلا فكيف نفسر خروجه عن التقليد الحنبلي برمّته، وذلك حين نقارن بين شخصيته الصوفية وزهد أحمد

---

[1] . ابن رجب البغدادي،كتاب الذيل على طبقات الحنابلة،ج1،ص66.

[2] . المصدر نفسه،ج1،ص54.

بن حنبل تساوقاً لطبائع الورع والتقشف المشهور به، خلافاً للمعنى الذي ذهب إليه بعض المتصوفة المتطرفين حين ألبسوه ثوب التصوف، بسبب تقواه العالية، فما هو معروف عند جميع الناس أن ابن حنبل لم يكن صوفياً، فمن أين للأنصاري الهروي هذا الميل الشديد للمنهج الصوفي فكراً وتمثلاً منهجاً وعقيدةً ؟.

يرى الشيخ عبد الغافر الفارسي في معرض حديثه عن الهروي، أنه كان «حسن السيرة والطريقة في التصوف، ومباشرة التصوف، ومعاشرة الأصحاب الصوفية، مظهر السنة، داعياً لها، محرضاً عليها»[1]، ولكنه إلى جانب ذلك، نجده يميل إلى الأبهة والمقام الحسن بين الناس، فممارسته الصوفية كانت تتم بعيداً عن العيون، وكما يحدثنا عبد الغافر الفارسي أن الأنصاري الهروي كان: «إذا انصرف إلى بيته عاد إلى المرقعة والقعود مع الصوفية في الخانقاه، يأكل معهم ما يأكلون، ويلبس ما يلبسون، ولا يتميز في المطعوم والملبوس عن آحادهم»[1].

ثانياً: المنهج الصوفي عند الأنصاري الهروي(قراءة في كتابه منازل السائرين):

لا ريب أن نتاج الهروي في الفكر الصوفي كان وافياً، بدليل ما خلّف من مؤلفات في هذا المجال الروحي، فلقد ترك لنا ما يفوق سبعة مؤلفات في التصوف ومذاهبه، وكانت هذه المؤلفات محل اهتمام المفكرين والفلاسفة من عرب ومستشرقين لكبير أهميتها في فهم أصول التصوف.

[1] . السابق،ج1ص64.

فلقد أشار الأستاذ ايفانوف إلى كتاب الأنصاري« طبقات الصوفية »، وكشف عن نصوصه المكتوبة بلغة هراة القديمة [1]، كما كشف البروفيسور آربيري عن نصوص صوفية، وهي منسوبة للأنصاري الهروي، وقد كُتبت بالفارسية الأصلية، ونشرها مترجمة إلى الإنجليزية[2].

على أن عملنا في تتبع منهج الأنصاري الهروي في التصوف، سينحصر في معلمته الصوفية الشهيرة « منازل السائرين»، والمصطلح عليه عند الخاصة بـ « دستور التصوف السلفي» .[3]

ويبدو أن كتاب« منازل السائرين»، يمثل ذروة النضج في تأليف العلامة الأنصاري الهروي، إذ ينم عن حسٍ صوفي بليغ، كيف لا، وقد ألّفه وهو على أعتاب السادسة والستين من عمره (سنة 462هـ/1070م)، فكان الكتاب« أقوى سجل للصيغ والمصطلحات النهائية لتعاليمه الصوفية».[4]

إن قراءة عجلى لمضامين هذا المؤلَّف الصوفي، تهدينا إلى عبقرية هذا العلامة حين حاول أن يوفق بين مذهبه الحنبلي وآراء المتصوفة، وإذا كان كتاب المنازل يمثل قمة أعمال الأنصاري الهروي، إذ أن فلسفته الصوفية تتجلى واضحة قوية، فلأنه وجد لمقامات التصوف التي يسلكها السائرون إلى الله أسساً من القرآن، بسطها بايجاز ووضوح، فغدا كتابه المنازل مرجعاً ودليلاً في التصوف، حتى إن المتأخرين عدوه «السجل الوافي المتكامل السلفي»[1] .

---

[1] CF .IVANOW.TABAKAT OF ANSARI IN OLD LANGUAGE OF HERAT ;IN :JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY,1923,PP 1—34,337—382.

[2] CF .A.J. ARBERRY,ANSARI'S PRAYERS AND COUNSELS ;IN ISLAMIC CULTURE , X ,1936,PP.369-389

[3] . عبد القادر محمود،الفلسفة الصوفية في الاسلام،(القاهرة،1966م،د.ط)،ص 100.

[4] . مقدمة كتاب منازل السائرين،للدكتور صلاح الدين المنجد،عن نشرة دي بوركي،(القاهرة 1962م)، ص هـ .

ويشير الأنصاري الهروي في مقدمة كتابه المنازل إلى سبب تأليفه فيقول :« فإن الراغبين في الوقوف على منازل السائرين إلى الحق عزّ اسمه من الفقراء من أهل هراة والغرباء طال عليّ مسألتهم إياي زماناً أن أبين لهم في معرفتها بياناً يكون على معالمها عنواناً ».[1]

ويبدو أن الأنصاري قصد في قوله الفقراء والغرباء، جمهور المتصوفة في حالهم ومآلهم، فهم غرباء في هذه الحياة الدنيا الفانية، فقراء إلى رحمة المولى تبارك وتعالى، ثم إن منهجه الصوفي ارتسم واضحاً منذ البداية، إذ نراه يعمد إلى التسلسل المنطقي في غربلة المعرفة الصوفية، ناقضاً بهذا المنهج القديم، الذي أطال في تفصيل مقامات أو مراتب الصوفية والتي وصلت عندهم إلى ألف مقام، فغربلها الأنصاري واختصرها إلى مائة مقام مقسومة على عشرة أقسام.

وإننا لنرى حصافة رأيه الثاقب، حين يؤكد بحقيقة راسخة مفادها أن الصوفي «لا يصح له مقام حتى يرتفع عنه، ثم يشرف عليه فيصححه»، ومن هنا نستخلص نظريته الجديدة في المقامات فهو في صميم مذهبه لا يحتم ضرورة اطّراد السير لجميع السالكين في جميع المقامات، مقامات كل قسم للرقي والصعود إلى القسم الذي يليه، فيستثني من ذلك الاستعدادات الشخصية لبعض النفوس أن ترقى إلى المقامات قفزاً بتوفيق من الله مع الاستعداد الشخصي والمجاهدة النقية الخالصة، حتى يصبح السالك المتحقق، كما يقول الأنصاري الهروي، مراداً بعد أن كان مريداً محبوباً بعد أن كان محبّاً[2].

---

[1] . كتاب منازل السائرين،ص3.

[2] . عبد القادر محمود،الفلسفة الصوفية،ص :102.

ثم إن منطق التقسيم عند الهروي الأنصاري كان نموذجياً، فمقاماته الصوفية مقسومة على عشرة أقسام «منازل»، وهي:(البدايات)، و(الأبواب)، و(المعاملات)، و(الأخلاق)، و(الأصول)، و (الأودية)

و(الأحوال)، و(والولايات)، و(الحقائق)، وأخيراً (النهايات)، والمخطط التالي يوضّح تدرّج السالك المريد في هذه المنازل العشرة :

. منازل المقامات كما وضعها الأنصاري للمريدين الصوفية وهي مرتبة ترتيباً تصاعدياً:

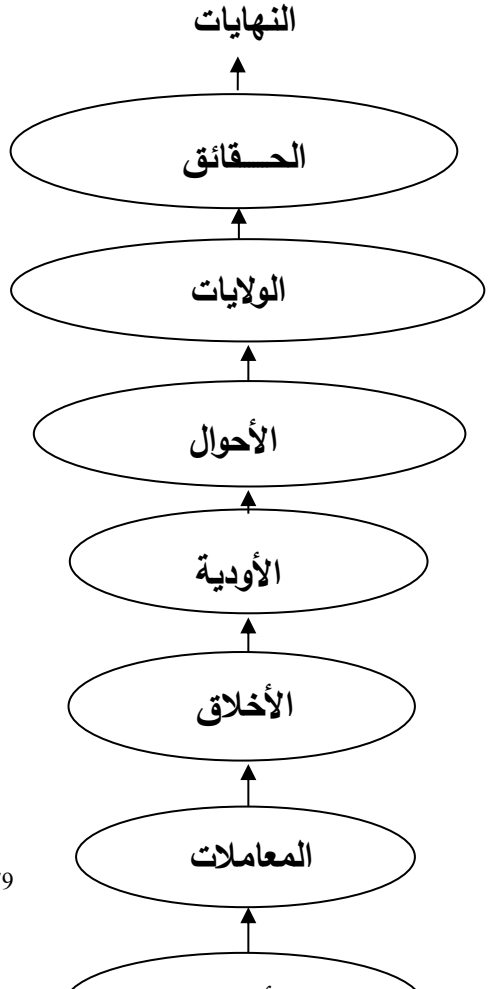

ومن خلال هذا التدرج الصوفي الهروي، نصل إلى حقيقة أخرى نستشفها ونحن نتعقب منهج الهروي، أنه نقض الصيغ السالفة، والتي وضعها المتصوفة في فهم التدرج الصوفي، ولعل أهم منطلق نظري أسسه هو التفرقة بين العامّة والخاصّة وبين خاصّة الخاصّة، وكأننا به يرمي إلى رسالة تربوية صوفيّة مفادها «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»، و« لكل مقام مقال».

ثم مع كل منزلة من المنازل السالفة يتدرج في ذكر أقسامها الخاصة بها، والتي يتوجب على المريد أن يتعقبها حتى يصبح مراداً، وسنحاول توضيح أقسام منزلة البدايات بمخطط توضيحي باعتبارها أول منزلة يتوجب على الصوفي أن يتبعها حتى يصل إلى مرتبة النهايات.

. مخطط تفصيلي يوضح أقسام منزلة البدايات:

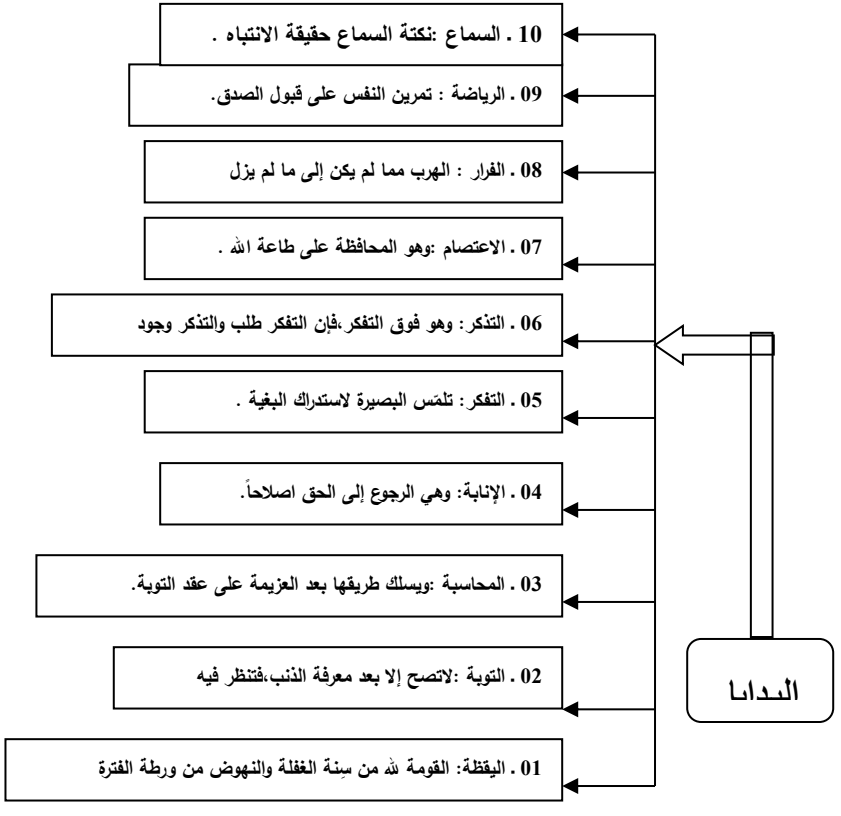

وكل هذا الاستقراء الصوفي يحيلنا إلى القول بأن الأنصاري الهروي كان واعياً لذلك الخلاف الواقع بين المتصوفة في بحثهم عن المقامات، فهم في الغالب الأعم، لا يرتبون تلك المقامات بشكل قاطع، وبسبب ذلك لايقفون في حدود تجمع مقاصدهم، فلم يهتدوا إلى تحديد «الدرجات» التي تميز كل مقام عن الآخر، وإن كانوا اتفقوا، برأي الهروي، في المنطلق «البدايات» والخاتمة «النهايات» فلا تصح المقامات الرفيعة في النهايات مالم تصح في البدايات.[1]

وتساوقاً مع الذي سبق، يؤكد العلامة الأنصاري أن الصوفي الذي يستطيع تصحيح البدايات هو الذي يتمكن من « إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة وتعظيم النهي على مشاهدة الخوف ورعاية الحرمة، والشفقة على العالم ببذل النصيحة، وكف المؤنة، ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب »[1].

ومن حيث السلوك يقسم الأنصاري الهروي المتصوفة خلال المقامات المائة إلى« مريد» و«مراد» ويقع بينهما «المدعي»، ثم إن المريد الصادق في قصده إلى الله يصلح في «النهايات» إلى أن يكون مراداً عندما تتحقق لديه عين التوحيد في طريق الفناء، وهذه هي قمة المعرفة في نظرية الصوفية.

أما الأدعياء، في رأي الأنصاري، فلكن تكون الغربة أداة لصدقهم بقدر ما تؤدي بهم إلى الباطل والزيف في الادّعاء، وفي كل هذه الدرجات والأقسام، نلمح الأنصاري، وهو يعمد إلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام لأقامة الدليل فيما يقول، ثم نراه مقسماً كل منزلة من المنازل ثلاثة درجات، درجة العامّة ودرجة السالك، ودرجة المحقق.

ولعلنا لا نجافي الصواب إذا قلنا : إن منهج الأنصاري الهروي يمثل ذروة الفلسفة الصوفية، لأنه، ولسبب بسيط، نحى المنحى النموذجي المتدرج

[1] . منازل السائرين،ص:04.

للوصول إلى مراتب التصوّف الحقيقية، ثم ربط بين هذه المنازل وجعل بعضها آخذ برقاب بعض، حتى لا يزيغ المريد عن جادة الطريق، وهو ماهيأ كتابه ليُقبل بقَبول حسن، بين الدارسين، فيتهافتون عليه دراسةً وشرحاً.

ثالثاً : نظرة الحنابلة للتصّوف الهروي :

يرتسم واضحاً ومنذ البداية، أن موقف الحنابلة لم يكن من التصوف عموماً، إلا من خلال الموقف الخاص من خلال الحلاّج، شهيد الصوفية، ولكي نربط بين الفكرة التي ذكرناها آنفاً، وما نودّ قوله أو تأكيده في هذا المجال، نحاول أن نشير إلى ما أبداه ابن عقيل الحنبلي «ت513هـ» من التراجع عن رأيه بصحة اعتقاد الحلاّج والخلوص تكفيره، وتأكيد صحة الإجماع في قتله[1]، وربما هنا يأتي هذا الموقف من الدور الذي أدّاه العلامة الأنصاري الهروي في إهمال أهل الشطح وعلى رأسهم الحلاّج.

على أن ظهور رجل حنبلي آخر، وهو علم من أعلام الحنبلية، ونقصد به ابن الجوزي «ت597هـ/1201م»، والذي يقف على النقيض من الطرف الآخر، فيشهر بالصوفية، والحلاجية بوجه عامّ، ولم ينس أن يحدد فهمه للتصوف على انه :« مذهب معروف يزيد على الزهد، ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوّف »[2]

ولعل اشمئزاز ابن الجوزي من المتصوفة وتشدده في الحنبلية هو الذي دعاه إلى إغفال ذكر شيخ الاسلام عند حديثه عن الصوفية، وهذا راجع إلى الود والإكبار الذي يكنّه ابن الجوزي للأنصاري الهروي، فأبعد اسمه عن

---

[1] . الدكتور كامل مصطفى الشيبي، شرح ديوان الحلاّج،(بيروت 1974،د.ط)،ص:79.

[2] . ابن الجوزي، تلبيس ابليس،(المطبعة المنيرية القاهرة د.ت)، ص :159.

الذين عرّض بهم في تلبيس ابليس، فبرأيه « كان الشيخ عبد الله الأنصاري لا يشذ عن المذهب شيئاً، ويتركه كما يكون »[1].

ونستحضر في هذا المقام رجلاً آخر، شديداً في الحنبلية وهو العلامة ابن تيمية الحنبلي «ت728هـ/1382م»، والذي كان يصرح أن« العامة يعبدون الله، وهؤلاء الصوفية يعبدون نفوسهم»، مع أنه يذكر الأنصاري الهروي بكل ثناء وتقدير، فيقول في حقه :« شيخ الإسلام مشهور، معظم عند الناس، هو إمام في الحديث، يعظم الشافعي وأحمد، ويقرن بينهما في أجوبته، مايوافق قول الشافعي مرّة، وقول أحمد مرّة أخرى»[2].

على أن نظرية الفناء التي جاء بها الأنصاري الهروي، هي التي استأثرت باهتمام ابن تيمية، فقوّم بعضاً من هَنَاتها، فهو يشير صراحة إلى «أن الفناء الذي يذكره صاحب المنازل، هو الفناء في توحيد الربوبية لا في توحيد الألوهية، وهو يثبت توحيد الربوبية مع الأسباب والحكم، كما هو قول القدرية والجهمية، كالجهم بن صفوان ومن اتبعه وغيره، وشيخ الإسلام الهروي، وإن كان، رحمه الله من أكثر الناس مباينة للجهمية في الصفات، وقد صنّف كتاب الفاروق في الفرق بين المثبتة والمعطّلة، وصنّف كتاب تكفير الجهمية، وصنّف كتاب ذم الكلام وأهله، وزاد في هذا الباب حتى صار يُصف بالغلو في الاثبات للصفات، ولكنه في القدر كان على رأي الجهمية، نفاة الأحكام والأسباب، والكلام في الصفات نوع، وفي القدر نوع ».[3]

وإلى جانب ابن تيمية، نجد ابن قيّم الجوزية، والذي كان من الحنابلة المنتصرين والمدافعين عن الأنصاري وتصوّفه، وبخاصّة عندما أعاد قراءة

---

[1] . ابن رجب البغدادي،كتاب الذيل على طبقات الحنابلة،ج1،ص59 .

[2] . المصدر نفسه،ج1،ص66.

[3] . ابن تيمية،(منهاج السنة، القاهرة،1962،د.ط)، ج3،ص ص:25،23

كتاب المنازل من وجهة نظر السلفية، درءاً للتأويلات البعيدة التي خلعها عليه الشرّاح من جهة، والوهم في إيضاح العبارات الملغزة عند الآخرين، من جهة ثانية، وحتى نفهم رأي ابن قيم الجوزية وموقفه التفصيلي من الأنصاري الهروي، نشير إلى عبارة ابن رجب البغدادي الحنبلي حين قال : « وللأنصاري كلام في التصوف والسلوك دقيق، وقد اعتنى بشرح كتابه منازل السائرين جماعة وهو كثير الإشارة إلى مقام الفناء في توحيد الربوبية، واضمحلال ما سوى الله، تعالى، في الشهود لا في الوجود فيتوهم فيه أنه يشير إلى الاتحاد حتى انتحله قوم من الاتحادية، وعظموه لذلك، وذمّه قوم من أهل السنة، وقدحوا فيه بذلك، وقد برّاه الله من الاتحاد، وقد انتصر له شيخنا أبو عبد الله بن القيم في كتابه الذي شرح فيه المنازل، وبين أن حَمْلَ كلامه على قواعد الاتحاد زور باطل ».[1]

تلكم كانت بعض آراء الحنابلة في شخصيّة الأنصاري الهروي، وهي بلا شك، آراء تشي بمنهج الاعتدال، في فكر الأنصاري الصوفي، لأنه صدر في كل ذلك عن كتاب الله وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم، فكان كتابه المنازل دستور الصوفيين .

الخاتمة :

ونحسب أننا بعد هذا التطواف الروحي والصوفي في رحاب شخصية من الشخصيات الإسلامية الفذّة والتي كان لها الأثر البالغ في بناء جانب من الحياة الروحية والاسلامية بمنهج اتسم بأنه:

1. بُني على أساس العودة إلى أصول الشريعة الإسلامية الحقّة بالاتكاء على القران الكريم والحديث النبوي الشريف

[1] . **ابن رجب البغدادي،كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، ج1، ص67.**

2. بالتدرج في مراتب التصوف ومخاطبة العقول حسب أقدارها، فلكل مقام مقال.

3. مثّل كتاب منازل السائرين منهجاً قائماً بذاته ومعْلَمةً للفقه الصوفي وهو ما جعل المتصوفة والمريدين يقبلون عليه وينعتونه بدستور الصوفية.

4 . لا نغالي كثيراً، إذا قلنا بأنّ العلامة الأنصاري الهروي يمثل مدرسة قائمة بذاتها في التصوف الإسلامي المعتدل.

5 . إن شيخ الإسلام، قد جعل من التصوف وسيلة لا هدفاً، في تطبيق النظرة الخالصة في الإسلام.

والحقيقة التي نحرص على التأكيد عليها ونحن نختتم بحثنا هذا هي أن الأنصاري الهروي كان بعيداً كل البعد عن التيارات المنحرفة بالعقيدة الإسلامية، فصحّ أن يتوّج على أنه مؤسس منهج التصوّف المعتدل .

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث :

أولاً : العربيــة

1. ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، (القاهرة، 1962، د.ط).

2 . ابن الجوزي، تلبيس إبليس، (المطبعة المنيرية القاهرة د.ت).

3. ابن رجب البغدادي، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، (القاهرة، 1372هـ =1952م، د.ط).

4 . الأنصاري الهروي، كتاب منازل السائرين، عن نشرة دي بوركي، (القاهرة 1962م د.ط).

5. الشيبي الدكتور كمال مصطفى شرح ديوان الحلاج(بيروت 1974م، د.ط) .

6 . محمود عبد القادر، الفلسفة الصوفية في الإسلام، (القاهرة 1962 م)

ثانـياً : الأجنبــية:

- A.J. ARBERRY,ANSARI'S PRAYERS AND COUNSELS ;IN ISLAMIC CULTURE , X ,1936
- W .IVANOW.TABAKAT OF ANSARI IN OLD LANGUAGE OF HERAT ;IN :JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY,1923.
- W.M.PATTON.AHMED IBN HANBAL AND THE MIHNA LEYDEN 1897.